وداعاً يا حسين ..

نجيب غلاك

عرفتُ حسين شاعراً مبدعاً رقيقاً وشفّافاً، وكان باحثاً وجامعياً من خيرة الأدباء الذين أنجبتهم أرض فلسطين وربما أكثر مبدعيها الشباب عمقاً وموهبة.
مات حسين وهو في عزّ شبابه تاركاً خلفه إرثاً أدبياً سيشهد على عبقريته وولداً صغيراً أبدع له اسم «آثر» وزوجة سمّاها بنفسه «بترا» تيّمناً بمدينة «البتراء» الأثرية التي ما تزال معالمها شامخة في صحراء الأردن تشهد على عمق حضارة أبناء هذا الشعب الضاربة في التاريخ.
كان حسين عبقرية استثنائية بحسب شهادة كلّ من قاربوه.. كان حسين في شهوره الأخيرة يقاوم داء السرطان الخبيث بكلّ ما يملك من قوّة. كان يكتب دون تمهّل رغم الإنهاك والألم، وكأنّه يسابق الزمن، إذ كان يعرف أنّ أيّامه أصبحت معدودة. عرفتُ حسين عن قُرب رغم أن لقاءاتي معه كانت محدودة.. لكن كلّ لقاء معه، كلّ جلسة، كلّ حوار، كان بمثابة لحظة تاريخية تركت أثرَها العميق في نفسي.. وكنت أكنّ له احتراماً خاصاً.
قرأتهُ شاعراً عظيماً، وعرفتهُ باحثاً مُنظّراً وصاحب منهج ورسالة.. تواضعه اللامحدود وإنسانيته الصادقة كأنها تجعلك تخجل من نفسك..
كان حسين يحتفي بأصدقائه، يستمع إليهم ويبادلهم الأفكار ولا يتوانى بالإدلاء برأيه والتعبير عن وجهة نظره.. ودائماً في حدود الأدب.. لم يكن أبداً سليطاً، ولم يكن يجرح إنساناً على الإطلاق.. كان رجلاً حُرّاً بكلّ معنى الكلمة، حُرّ الكلمة، حرّ المبدأ، حُرّ التصرف.
كان حسين يطرّب للكلمات، كان يحبُّها حيّة راقصة لا خطابية جافّة. وأنت تُنصِت إليه كأنك تُحسّ أنه يعيش في حالة تجلٍ مُستمر..
كان حسين عربياً فلسطينياً حتى النخاع، وفي ذات الوقت، كان مُنفتحاً عاشقاً لكُلّ الثقافات، يعشق المتنبي ويسردُ أشعار رامبو وبودلير.. وكان فلاّحاً يهيم في حبّ الطبيعة، يُحاوِرَها ويحتفي بأرضه، خاصة أرض قريته «كوبر» التي كان يُكنّ لها عشقاً خاصاً.
آخر مرّة رأيتُ فيها حسين البرغوثي كان ذلك في شهر ديسمبر من سنة 2001 بمسرح القصبة برام الله.. ودّعته لأنني كنتُ على أُهبة السفر إلى فرنسا. تعانقنا بحرارة – وكنتُ أحسّ أنّ حسين كان يشعر بخَجَلي فأنا أكرهُ لَحَظات الوداع – فكان يطلق نكتة أو كلمة خفيفة ليُبدّد عنّي هذا الإحساس الذي كان يُحرجُني.. تعانقنا على أمل أن نلتقي بعد عودتي القريبة إلى رام اللهَ، إذ كان لا بُدّ لي أن أعود إلى فلسطين لمتابعة العمل الذي كنت ابتدأتهُ بصحبة أصدقائي بمسرح القصبة ولم أكُن أعرف وقتها أن سُلُطات الاحتلال ستَمنعُني من العَودة.. في تلك الليلة كان حسين قد جاء ليشاهد مسرحية كنتُ أنجزتها مع فرقة مسرح القصبة، وكنتُ جدّ مُحرَج لأنني كنتُ أعرف أن حسين كان قد غادَر المستشفى منذ أيّام قليلة فقط، وأن صحّتهُ مُتدهورة، وَمع ذلك تحمّل مشاق التنقّل والسهر وجاء ليحضر المسرحية.. لم أكن وقتها راضياً عن نفسي لأنني كنتُ على وَعْي تام بأنَ ظُروف العمل والحصار لم تساعدنا البتّة في إنجاز العمل بالشكل الذي كُنّا نطمح إليه، لكن حسين كان متفهماً، بل جاءت كلَماته إليّ بعد العرض صادقة أخوية ومشجّعة رَفَعت من معنوياتي.. فقد كان حسين يرى بحدسه وعقله ما لا يراهُ المتفرّج العادي.
وداعاً يا حسين.. وآعدك أننا – وفاءً منّا لذكرَاك – سننشد جلجامش بلغة هذا الشعب على نغمات اليرغول والربابة.. وسنحيي «هملت» على خشبة المسرح العربي باللغة التي ترجمتها أنت.